

تَضَارَبَتِ الْآرَاءُ حِينَ أَعْلَنَ خَادِمُ بْنُ زَاهِرٍ اسْتِيبَاءَهُ مِنْ حُسَيْنٍ صَاحِبِ (البوم) قَائِلًا: «إِنَّمَا أَنْ تُعْطِينَا حُقُوقَنَا كَامِلَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ كُنَّ لَهُ حُبًّا عَظِيمًا، مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَمِّنَ لُقْمَتَهُ وَلُقْمَةَ عِيَالِهِ مِنْ صَيْدِ السَّمَكِ. يَتَّبَاعِدُونَ عَنْهُ كَمَنْ أَصَابَهُ الْجَرَبُ، يَحْمِلُ شِبَاكُهُ عَلَى ظَهْرِهِ مُتَظَاهِرًا بِالْأَمْبَالَةِ، لِكَسْرِ حَلْقَةِ الْفَقْرِ الَّتِي اشْتَدَّ ضَيْقُهَا عَلَى أَعْنَاقِهِمْ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَرْفُضُ الْفِكْرَةَ كَانَتْ ثَنِيَّةً تَوَدُّ أُخْتَهَا مِيرَةَ زَوْجَةَ ابْنِ زَاهِرٍ، وَتَحْرِصُ عَلَى زِيَارَتِهَا، فِي كُلِّ مَسَاءٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَكَانَتْ تَصْطَحِبُ مَعَهَا ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ ذَا الْأَعْوَامِ الثَّمَانِيَةِ لِيلْعَبَ مَعَ وَلَدَيْ خَالَتِهِ؛ وَمُبَارَكُ الَّذِي يَصْغُرُهُ بِعَامِينَ، رِيثَمَا تَذْهَبُ الْأُخْتَانِ إِلَى بَيْتِ عَمَّتَيْهِمَا عَوْشَةً؛ حَيْثُ يَنْسَامِرُ الثَّلَاثُ حَتَّى بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثُمَّ تَعُودَانِ لِتَجْرَجِرَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ وَلَدَهَا وَهُوَ فِي حَالَةٍ أَقْرَبَ إِلَى النَّوْمِ مِنْهَا إِلَى الْيَقَظَةِ. هَكَذَا كَانَتْ تَمْضِي أُمَسِيَاتُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرِ، كَمَا كَانَ يُنَادِيهِ ابْنُ زَاهِرٍ، عِدَا الْأُمَسِيَّاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا وَالِدُهُ قَدْ عَادَ مِنَ السَّفَرِ، فَهُوَ يَأْتِي وَحْدَهُ إِلَى بَيْتِ خَالَتِهِ مِيرَةَ، وَغَالِبًا مَا يَنَامُ عِنْدَهُمْ يَقْضِي الْأَطْفَالُ لَيْلَتَهُمْ يَلْعَبُونَ «مَلِكٌ أَوْ وَزِيرٌ» بِأَنْ يَفْذِفَ أَحَدُهُمْ عُلبَةً كَبْرِيَّتٍ فِي الْهَوَاءِ، وَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى ظَهْرِهَا كَانَ لِصًّا، فَيَحْكُمُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ بِالضَّرْبِ، وَيَقُومُ الْوَزِيرُ بِتَنْفِيزِ الْعُقُوبَةِ. هُوَا. ثُمَّ تُغَادِرُهُمْ بِسَلَامٍ. فِي أَيَّامِ الرَّبِيعِ، تَنْتَظِرُ دُنُوَّ الْأَصِيلِ، لِتَفْتَرِشَ الْحَصِيرَ فِي صَحْنِ الْبَيْتِ، وَتَضَعَهُ فَوْقَ الصُّنْدُوقِ الْخَشَبِيِّ الْمُخَصَّصِ لِذَلِكَ. وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ تَغْرِزُ عُلبَةَ الصَّفِيحِ فِي الرَّمْلِ، كَقَاعِدَةٍ تُثَبَّتُ فَوْقَهَا (يَحْلَةُ) الْمَاءِ الْبَارِدِ وَالْمُعْطَرِّ بِالْبُخُورِ. وَهُوَ يَهْمُهُمْ سَاصُنْعُ وَاحِدَةٍ مِثْلَهَا بِهِذِهِ الْجِبَالِ، قُمْ وَاصْطِدْ لَنَا بَعْضًا مِنَ السَّمَكِ. - اتَّفَقَتْ مَعَ يَوْسُفَ عَلَى ذَلِكَ، يَهِيْمُ فِي الطَّرِيقَاتِ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، كَانَ يَتَأَمَّلُ عَوْدَةَ وَالِدِهِ مِنَ السَّفَرِ، وَلَكِنْ بَوْمَ حُسَيْنٍ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ، وَكَانَ مُبَارَكٌ قَدْ رَافَقَ أُخْتَهُ لِعِبَادَةِ صَدِيقَتِهَا هِدَايَةَ، غَادَرَتِ الْمَرَاتَانِ إِلَى عَمَّتَيْهِمَا، تُطْرُزُ نَفْسَهَا بِنُجُومٍ فَضِيَّةٍ، وَهِيَ تَلْحَفُ الْأَرْضَ بِصَبْرِ جَمِيلٍ، وَقَدْ خَضَعَ (الْفَرِيحُ) لَصِمَتٍ مُتَعِبٍ، تَغْلَبَ عَلَيْهِ حَوَارُ الرَّجُلِ وَالطِّفْلِ وَيَصْدُرُ مِنْ عَادَاتِ ابْنِ زَاهِرٍ عِنْدَمَا يَسْرَحُ بِفِكْرِهِ، أَنْ يُدْخَلَ عَوْدًا مِنَ الثَّقَابِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، صَوْتًا يُشْبِهُ زَقَزَقَةَ الْعَصَافِيرِ. تَعَلَّمَهُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي الْبَحْرَيْنِ "الْمَجْدُ لِلْفُقَرَاءِ". وَاسْتَمَرَ يُصْدِرُ زَقَزَقَةَ الْعَصَافِيرِ وَهُوَ يَشْفِطُ مَا تَبَقِيَ مِنْ سَمَكِ الْعِشَاءِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، ثُمَّ يَقْذِفُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْبَرَّاحِ. ثُمَّ عَرَاهُمَا بَعْدَ هُنَيْهَةٍ. وَظَلَّ الصَّغِيرُ يُصْغِي لِثَغَاءِ الْمَاعِزِ وَالْخِرْفَانِ فِي طَرَفِ الْحَوْشِ. كَنَزَ (مِدْوَاخُهُ) بِالْغُلْيُونِ، وَأَخَذَ يَسْعُلُ تَحْتَ الضِّيَاءِ الْوَاهِنِ بَيْنَمَا ظَلَّ الصَّغِيرُ يُرَاقِبُ الدُّخَانَ الْمُتَسَرِّبَ نَحْوَ الظَّلَامِ بَطِينًا وَكَثِيفًا. لَمْ يَكْتَرِثِ الصَّبِيُّ لِمَا حَدَثَ، وَظَلَّ يَتَابِعُ ابْنَ زَاهِرٍ فِي صِمَتٍ عَمِيقٍ، أَخَذَتِ النَّشْوَةُ ابْنَ زَاهِرٍ، فَانْقَلَبَ مُنْكَبًا عَلَى بَطْنِهِ، أَوْ نَائِمًا عَلَى جَنْبِهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ عَلَى رَاحَتِهِ، حَتَّى أَخَذَتْهُ سِنَّةٌ مِنَ النَّوْمِ. وَتَذَرَعُ الصَّغِيرُ بِالصَّبْرِ، وَقَدْ اكْتَفَى بِأَنْ يَنْظُرَ إِلَى النَّائِمِ. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا كَمَا كَانَ، إِلَى أَنْ قَفَزَ (خَادِمٌ) فَجَاءَهُ، وَسَأَلَ الصَّغِيرَ الْوَاجِبَ: أَلَمْ يَأْتِ بِأُتْيَا بَعْدُ؟! دُونَ أَنْ يُدْخَلَ عَوْدَ ثِقَابِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، - أَنَا أَعْرِفُهَا، - اسْمَحْ لِي، أَخْرَجَ الرَّجُلُ ثِقَابَهُ، وَاعْتَدَلَ فِي جِلْسَتِهِ، وَشَحَنَ الْمِدْوَاخَ لِيَحْرِقَ مَا بِدَاخِلِهِ مِنْ تَبَعٍ، كَمَنْ فَقَدَ شَيْئًا، ضَحِكَ الرَّجُلُ وَقَالَ: «أَعْطِنِي الْيَحْلَةَ لِأَشْرَبَ. لَمْ يُحَاوِلِ الصَّغِيرُ فَهَمَّ أَيُّ شَيْءٍ مِمَّا قَالَهُ. سَلَّمَهُ الْيَحْلَةَ وَجَلَسَ. وَعَادَ (خَادِمٌ) يُكْمِلُ طَرِيقَ السُّخْرِيَّةِ فِي صِمَتٍ «هَهُ. مَلِكٌ أَوْ وَزِيرٌ، قُلْ أَجِيرٌ عِنْدَ حُسَيْنٍ فِي بَوْمِهِ الْمَبْنِيِّ عَلَى السُّحْتِ. - أَيُّ بُنِي، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَوَجَعِ الدَّاءِ، إِنَّهُ أَشَدُّ. لَكِنَّهُ أَحْسَنُ بُوخَزَاتٍ مِنَ الْأَلَمِ وَظَلَّ الْاِثْنَانِ فِي صِمَتٍ وَخُشُوعٍ حَتَّى أَنْهَتِ (اللَّغَايَةُ) أُغْنِيَتْهَا! وَقَالَ الْمَذِيْعُ: تُصْبِحُونَ عَلَى خَيْرٍ. وَكَانَ الصَّبِيُّ يُنْصَبُ فِي غَرَابَةٍ، وَتَضَارَبَتِ الْإِذَاعَاتُ، مَدَّ (خَادِمٌ) يَدَهُ فَأَسْكَتَ الْخَشْخَشَةَ ثُمَّ أَشْعَلَ مِدْوَاخَهُ وَصَفَنَ، ثُمَّ نَطَقَ الْوُجُودَ كُلَّهُ. كَانَ اللَّيْلُ يَتَوَغَّلُ بِخُطَوَاتِهِ الصَّامِتَةِ، قَالَ ابْنُ زَاهِرٍ وَهُوَ يَمْدُ يَدَهُ فِي الظَّلَامِ: أَدْنُ مِنِّي يَا صَغِيرِي. ثُمَّ قَالَ: أَتَعْرِفُ الظَّلْمَ يَا وَلَدِي؟ فَأَجَابَ الطِّفْلُ «أَسْمَعُ عَنْهُ، مَا الظَّلْمُ يَا أَبْتِي؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ تَجَاعِيدِ وَجْهِهِ: «الظَّلْمُ هُوَ أَنْ يَوْجَدَ فِينَا وَاحِدٌ مِثْلَ حُسَيْنٍ، هُوَ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ مَا نَسُدُّ بِهِ الرَّمَقَ. تَصَاعَدَ الدَّمُ فِي رَأْسِ ابْنِ زَاهِرٍ فَأَصْبَحَ كَالْمَرْجُلِ، هَا هُوَ أَبُوكَ يَدُورُ كَالثَّوْرِ الْمَرْبُوطِ فِي (الْمَنْيُورِ) مِنَ الْهِنْدِ إِلَى إِفْرِيقِيَا إِلَى الْمَمْلَكَةِ، يَصُبُّ الْخَيْرَ فِي جُعْبَةِ حُسَيْنٍ وَيَزِدَادُ أَبُوكَ فَقْرًا عَلَى فَقْرِهِ، سَيَقْذِفُ بِهِ فِي الْبَحْرِ، كَمَا فَعَلَ مَعِي هَا أَنْتَ تَرَانِي كَالْآلَةِ الْمَعْطُوبَةِ. كُنْ بَحَارًا - يَا وَلَدِي - فَنَحْنُ كَالسَّمَكِ يُمِيتُنَا الْبُعْدُ عَنِ الْبَحْرِ، وَلَكِنْ لَا تَكُنْ ثَوْرًا يَدُورُ لِصَالِحِ أَحَدٍ فَالثَّيْرَانِ يَجِبُ أَنْ تَتَّحِدَ لِصَالِحِهَا الْمُشْتَرَكِ. عَصَرَ رَأْسَهُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ. ارْتَفَعَ ثَغَاءُ الْجِدَاءِ يَدُقُّ فِي رَأْسِهِ الْمَعْطُوبِ كَنَاقُوسٍ ضَخْمٍ تَصَدَّعَ رَأْسُهُ، وَاحْتَفَنَ وَجْهَهُ. تَوَرَّمَتْ شَفَاتُهُ، حَضَرَ الْجِنَازَةَ خَمَاسُ الْأَعْوَرِّ، وَعَيْسَى الْأَعْرَجُ، وَمُرَادُ الْبَقَالِ، وَسَيْفُ (الْمُطَوَّعُ)،